علي المحافظة ، العلاقات الاردنية ــ البريطانية (من تأسيس الامارة حتى الغــاء المعاهدة ١٩٢١ ــ ١٩٥٧)

(دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣) .

خضع تاريخ الاردن السياسي طيلة الخمسين عاما الماضية لحملة كبيرة من التضليل وذلك نتيجة لحرص السياسة البريطانية على اخفاء الدور الذي اوكلته لتلك الكيانات السياسية التي أنشأتها في فترة ما بعد الحرب الاولى بالتعاون مع الهاشميين في كل من الاردن والعراق . ومن استعراض لغالبية تلك المؤلفات التي تناولت صيانة هذا التاريخ يمكننا التمييز بين صنفين من الكتاب :

ــ موظفون بريطانيون (عسكريون ومدنيون) سبق لهم الخدمة لدى الادارة البريطانية في الاردن واشرفوا على تنفيذ تلك الخطط البريطانية مثل : بيك ، كيركرايد بوغ وكلوب . واتجه اهتمام هؤلاء بالطبع للدفاع عن وجهة النظر البريطانية وتجاهل الحركات الوطنية المعارضة او التقليل من شأنها او نحو الحديث بحماس عن تجربتهم الذاتية المغامرة .

ــ كتاب عرب : اما رسميون هم جزء من النظام القائم انصرفوا الى عرض ذلك التاريخ بقدر كبير من المغالطة ككتب المذكرات التي كتبها الملك عبدالله وهزاع المجالي والملك حسين .

أو كتاب اجراء تولوا مهمة تزوير ذلك التاريخ لحساب النظام القائم ولم يكونوا معنيين أصلا بالقضية العلمية مثل سليمان الموسى ، منيب الماضي ، موسى يكمرزا ، تيسير ظبيان ، احمد العلي ، امين ابو الشعر .. وآخرون .

وفي الشهر الماضي صدر كتاب جديد عن دار « النهار » تناول العلاقات الاردنية ــ البريطانية منذ تأسيس الامارة حتى الغاء المعاهدة (١٩٢١ ــ ١٩٥٧) . وتأتي أهمية الوقوف عند هذا الكتاب من أهمية الموضوع أولا . فتناول العلاقة بين الاردن وبريطانيا يعني بالحقيقة تغطية التاريخ السياسي للاردن طيلة تلك الفترة . وثانيا من حيث ان المؤلف طرح كتابه بادعاء الخروج عن ذلك النسق غير الموضوعي وذلك التحيز الشخصي اللذين وقع فيهما معظم المؤلفين العرب والاجانب ــ على حد تعبيره ــ (ص ٩) وحاول بذلك ان يمنحنا الثقة الاكاديمية في الدراسة على اعتبار انها جهد رفيع تقدم به الكاتب الى جامعة السوربون في باريس عام ١٩٧١ كأطروحة للحصول على دكتوراه الحلقة الثالثة في التاريخ العربي المعاصر .

ثمة ملاحظة اساسية تلفت نظر المطلع على الدراسة سلفا تتعلق بمنهج الكتاب ، وهي ان الكاتب اختفى طيلة الـ ٢٨٤ صفحة وراء أكداس من الاقتباسات والحواشي فجاء كتابه تسجيليا مسطحا يفتقر الى العمق والتحليل والربط ولا تعدو معظم صفحاته ان تكون جهدا تجميعيا للمعلومات سجلها الكاتب ووضع ارقاما للحاشية في نهاية كل فقرة (انظر معظم صفحات الكتاب) .

صحيح ان المؤلف قد أورد في نهاية دراسته أسماء لنحو ١٥٠ مرجعا عربيا وأجنبيا بين كتب ووثائق ومنشورات رسمية وصحف ، الا انه افتقد القدرة العلمية على البحث وعجز عن استخدام تلك المصادر والمراجع الاستخدام الافضل وفق أساليب وطرق البحث العلمي ، ولم يكن بامكانه سوى اعادة ترتيب تلك الاقتباسات وتدوينها بينما تلاشت تماما شخصية الباحث خلف سطور الكتاب . لقد حد هذا من الفائدة المرجوة والمحتملة للبحث بعد أن ساقه ذلك النهج للوقوع في مزلقين هامين هما :

(١) غياب المنهج التحليلي العلمي ، او محاولة استكشاف الخلفيات الاجتماعية والسياسية لظاهر الاحداث او محاولة ربطها ، فهو عندما يسوق حادثة طرد الاستقلاليين من الاردن ١٩٢٤ واطلاق يد بيك في السيطرة على الجيش (ص ٥٢ ، ٥٥) لم يوضح البنية الاجتماعية والذهنية للاستقلاليين ، ولا سرد التأييد الشعبي الذي احيطوا به بين العشائر الاردنية : وما هي الاعتبارات التي حكمت علاقتهم مع الامير عبدالله ، والتأثيرات التي خلفها اجراء الطرد على اوضاع الحركة الوطنية . وعندما يتعرض لحركات العصيان العشائري التي شهدتها الامارة في البداية (ص ٥٤ ، ٥٥) لم يبد اي اهتمام في تحليل الموقف البريطاني من هذه الحركات .

وعندما يورد بنود الاتفاقيات الاردنية ــ البريطانية كاتفاقية ١٩٢٨ والقانون الاساسي (ص ٦٨ ــ ٧٤) فانه يقوم بمهمة تسجيل تلك النصوص